الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين

أد. بلعربي خالد/ قسم العلوم الإنسانية/شعبة التاريخ/جامعة سيدي بلعباس

الملخص باللغة العربية:

نحاول في هذه الدراسة، التطرق إلى ميلاد الفكر الأنثروبولوجي عند الرحالة المسلمين وذلك من خلال عرض نماذج لهؤلاء الرحالة . الذين كان لهم دور في إرساء أسس هذا العلم، و إماطة اللثام عن الكثير من الحقائق الأنثروبولوجية عن طبيعة المجتمعات التي زاروها خلال تلك الفترة. وهذا يفند تلك الأطروحات الاستعمارية الغربية التي أنكرت هذه الحقيقة التاريخية مؤكدة عن مساهمة الأنثروبولجيين المسلمين ركب الحضارة الإنسانية واعتبرت أن ميلاد الفكر الأنثروبولوجي ظهر على أيدي العلماء الأوروبيين، و قد تنكرت هذه الأطروحات لمجهودات هؤلاء الرحالة المسلمين و ما قدموه لعلم الأنثروبولوجيا من خدمات جليلة ساهمت في بلورة علم الأنثروبولوجيا.

الكلمات المفتاحية: الانثروبولوجيا-الرحالة- العلماء المسلمين-العصور الوسطى.

Abstract:

Concerned about the file which intend to open in this study, the historic reputation of the birth of the thought of the Islamic anthropologist by backpackers Muslims, through the forms for those travelers who have an effective role in laying the

foundations of this science, we believe that reveal the secrets of the inward, ensures that reveals the many facts anthropological .and the nature of the societies in which they visited.

Despite recognition by some Western forensic anthropologists the role of Muslim scientists backpackers in establishing this science through treated of many social phenomena that interference in anthropology concerns, however, it was the direction of the ungrateful and overlooking to some of them this historical fact through the pursuit of, or underestimated and support this trend movement of European colonialism to the western and Islamic worlds, confirming the inability of the Arabs and Muslims on creativity and contribute to install human civilization which made aware of anthropology as recognized, overlook the studies carried out by the Muslim Scholars backpackers who wandered in the various countries in the world bright, in essence, the anthropological literature remained reviews deny the efforts of these scientists backpackers and production, and rendered Anthropology Of great services, which in our view is a gap in the history of the thought of anthropology.

مقدمة:

يهتم الملف الذي نزمع فتحه في هذه الدراسة ، تأصيل تاريخي لميلاد الفكر الانثروبولوجي الإسلامي على يد الرحالة المسلمين ، وذلك من خلال عرض نماذج لهؤلاء الرحالة الذين كان لهم دور فعال في إرساء أسس هذا العلم ، ونعتقد أن نكشف عن خبايا تلك الرحالات ، كفيل بأن يميط اللثام عن الكثير من الحقائق الأنثروبولوجية عن طبيعة المجتمعات التي زاروها.

وعلى الرغم من اعتراف بعض الأنثروبولوجيين الغربيين بدور العلماء المسلمين الرحالة في تأسيس لهذا العلم من خلال معالجتهم للكثير من الظواهر الاجتماعية التي تدخل في اهتمامات الأنثروبولوجيا ، إلا أنه ساد اتجاه ناكر ومتنكر لدى البعض الآخر منهم لهذه الحقيقة التاريخية من خلال السعي لطمسها ، أو التقليل من شأنها ، وقد دعم هذا الاتجاه حركة الاستعمار الأوروبي للعالمين الغربي والإسلامي ، مؤكدا عن عجز العرب المسلمين عن الإبداع ، والإسهام في ركب الحضارة الإنسانية [1] وهو ما جعل علم الأنثروبولوجيا كعلم معترف به ، يتغاضى ذكر الدراسات التي قام بها العلماء المسلمون الرحالة الذين جابوا الأقطار المختلفة في مشرق العالم ومغربه ، والحاصل أن الكتابات الأنثروبولوجية الغربية ظلت كتابة تنكر مجهودات هؤلاء العلماء الرحالة وإنتاجهم ، وما أسدوه لعلم الأنثروبولوجيا من خدمات جليلة [2] ، وهو ما يشكل في نظرنا ثغرة في تاريخ الفكر الانثروبولوجي.

ولردم هذه الثغرة ، اتجه البحث الانثروبولوجي في العالم العربي والإسلامي خلال السنوات الأخيرة اتجاها إيجابيا يتمثل في استغلال كتب العلماء المسلمين الرحالة كأدوات مصدرية جديدة ، ومن أجل معرفة ما شاهد هؤلاء الرحالة عن الشعوب المختلفة التي زاروها ، لما تمثله هذه الكتب من أهمية متعاظمة في الكتابة الأنثروبولوجية في الوقت الحاضر. [3]

ونظرا لأن بحثنا يرتكز أساسا على مصنفات الرحالة المسلمين ، آثرنا بناء الإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة ، لما تمثله هذه المصنفات من أهمية بالغة في الكتابة عن جذور الفكر الانثروبولوجي الإسلامي ذلك أن النبش في التراث الإسلامي ، والحفر في عميقا فيه ، يشكل قناة نحو تطوير البحث الانثروبولوجي الإسلامي ، ويسهم مساهمة فعالة في دحض مرتكزات بعض الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية التي همشت العلماء المسلمين الرحالة في التأسيس لهذا العلم.

1–العلماء المسلمون الرحالة وميلاد الفكر الانثروبولوجي الإسلامي :

إذا كانت الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان ، ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحية الأخرى من جهة ، وأوجه الشبه والاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى ، فإنه يمكن القول أن العلماء المسلمين الرحالة قد أدركوا ذلك منذ وقت مبكر قبل أن يدركه الغربيون ، فالرحالة المسلمين كانوا أنثروبولوجيين ، لما لهذه الكلمة من معنى ، وذلك قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا ، وبالتالي لا يمكن إنكار أن الأنثروبولوجيا علم عربي إسلامي أصيل [4] ذلك لأن الرواد من

هؤلاء الرحالة الذين جابوا مختلف الأقطار أنهم كانوا أنثروبولوجيين ، فقد قاموا برحلاتهم اهتداء لقوله تعالى " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" وقوله أيضا

" وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً".

إذا تأملنا في مختلف مصنفات الرحالة المسلمين الذين طافوا العالم و درسوه ، فإنهم يعطون لنا مادة دسمة عن حياة الشعوب المختلفة وفق نظرة علمية حسب منهج الأنثروبولوجيا الحديث.

انطلاقا من هذه القرائن ، يتضح اهتمام الرحالة المسلمين بوصف الشعوب التي زاروها ، حيث شكلت مصنفاتهم الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا [7] لقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات الإسلامية اهتماما بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة ، وسبل إدارتها حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم ، ولذلك برز المسلمون في وضع المعاجم الجغرافية ، كمعجم البلدان لياقوت الحموي ، وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، ونهاية الأرب للنويري. [8]

وإلى جانب اهتمام هذه الكتب الموسوعية بعلم العمران وشؤونه ، فقد تميزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصية ، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الانثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية ، وهناك من تخصص في وصف إقليم واحد مثل اليبروني

(362 _ 440 هـ) الذي وضع كتابا عن الهند بعنوان " تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " ، وهو يمثل تجربته الشخصية والميدانية التي دامت ثلاثة عشر سنة ، وصف في هذا الكتاب المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وثقافية مع مقارنتها بمثيلاتها لدى العرب واليونان والفرس ، وأبرز البيروني في هذا الكتاب ، حقيقة أن الدين يؤدي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية ، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات وصياغة القيم والمعتقدات ، وقد تمخضت عن هذه الدراسة حقائق وقواعد ونظريات مهمة في علم الإنسان الذي هو مجال الأنثروبولوجيا [9] وأكدت ريادة العلماء المسلمين في شتى العلوم ، كما كانت لرحلات إبن بطوطة وكتاباته خصائص ذات طابع أنثر وبولوجي برزت في اهتمامه بالناس ، ووصف حياتهم اليومية وطابع شخصياتهم ، وأنماط سلوكاتهم ، وقيمهم وتقاليدهم فتمما كتبه مثلا في استحسان أهل السودان ، فمن أفعالهم قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ، ولا المقيم من سارق ولا غاضب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض و الأجانب) ولو كان القناطر المقنطرة ، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه [10] .

وثمة قرينة أخرى تضاف للبرهنة على أن الأنثروبولوجيا علم عربي أصيل ، فقد أورد ابن خلدون في كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " الذي نال شهرة واسعة في أوساط الباحثين بسبب مقدمته التي عنونها في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش ، والمصانع والعلوم ، وتعتبر هذه المقدمة عملا أصيلا في

تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال إفريقيا ، ولا سيما العادات والتقاليد ، والعلاقات الاجتماعية ، إلا جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كامل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة [11] .

وقد شكلت هذه الدراسات التي احتواها كتاب المقدمة اهتماما منقطع النظير في الدراسات الأنثروبولوجية ، ولعل من أهم الموضوعات التي عالجها ابن خلدون في مقدمته ، ولم ينتبه إليها الأنثروبولوجيين الغربيون إلا فيما بعد ، تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية ، فقد ردّ ابن خلدون _ استنادا إلى تلك الدعامة _ اختلاف البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسية وصفاتهم الجسمية والخلقية إلى البيئة الجغرافية التي اعتبروها أيضا عاملا هاما في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية ، كما تطرق ابن خلدون في مقدمته أيضا مسألة قيام الدول وتطورها وأحوالها ، وبلور نظرية " دورة العمران " بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي [12] .

وقد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق والغرب _ على حدّ سواء _ في العصر الوسيط ، حيث اعتبر ابن خلدون أن التطور هو سُنة الحياة الاجتماعية ، وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية ، يقول في هذا الشأن : " إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم ، لا تدوم على وتيرة واحدة ، ومنهاج مستقر ، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول " [13] .

لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية ، ودورة الحضارات التي تمرّ بها ، ولذلك يرى بعض الكتاب المؤرخين أن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع ، بيتنا يرى بعضهم الآخر ولا سيما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون ، أن مقدمة ابن خلدون تحوي بعضا من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها ، وقد أشار" جون هونجيمان " الأمريكي في كتابه " تاريخ الفكر الانثروبولوجي " إلى أن " ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة لنظرية " مارفين هاريس " عن المادية الثقافية ، ونجد أن " هاريس " ذاته يذكر أن ابن خلدون ومن قبله الإدريسي ، قدّما أفكارا ومواد ساعدت على بلورة نظرية الحتمية الجغرافية التي سادت إبّان القرن الثامن عشر ، وعليه يمكن القول أن الفلاسفة والعلماء المسلمين الرحالة أسهموا مساهمة فعالة خلال الفترة الوسيطة في معالجة الكثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في اهتمامات الأنثروبولوجيا ولا سيما التنوع الثقافي بين الشعوب" [14].

2-أهمية كتب الرحالة المسلمين في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة :

تعد كتب الرحالة المسلمين من أهم المصادر التاريخية التي تؤرخ لمختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية ، التي بإمكان الباحث في الأنثروبولوجيا الاستفادة منها ، ذلك أن الفكر الانثروبولوجي المعاصر عرف ثورة منهجية أحدثت هزة كبيرة في المناهج التقليدية ، فلم يعد الباحث في الأنثروبولوجيا يعتمد على الملاحظة المباشرة فقط ، و إنما أصبح منفتحا على جميع العلوم التي يمكن أن تساعده في بلورة بحثه ، حيث صار يقتبس من كتب التاريخ التي تعينه على فهم الكثير من الحقائق

الأنثروبولوجية ، مما شكل تلك العلاقة المعرفية والاهتمام المشترك بين الانثروبولوجي والمؤرخ.[15]

لقد أثبتت الإنتاجات الأنثروبولوجية الحديثة والقراءات والمتابعات أن ثمة قلقا فعليا يراود بعض الأنثروبولوجيين الغربيين من جراء عدم توظيف الكثير من الدراسات التي قام بها المؤرخون حول كتب الرحالة والاستعانة بها في أبحاثهم ، ذلك أن الصلة وطيدة بين الأنثروبولوجيا والتاريخ ، والتداخل بين العلمين يعكس ارتباطات الفكر الانثروبولوجي بحقول المعرفة الإنسانية والاجتماعية والطبيعية [16] ولكن على الرغم من غنى العلوم في التراث العربي ، إلا أن الأنثروبولوجيا لم تلق الاهتمام في الدوائر العلمية ، والبحثية العربية ، كما هي الحال في الدول الغربية ، ويبدوا ذلك راجع إلى ضعف في الإعداد العلمي والتكوين الثقافي وعدم إدراك أهمية هذا العلم في مجتمعاتنا الإسلامية.[17]

لقد أفرزت كتب الرحالة المسلمين عن ثروة معلوماتية هائلة كانت النور والدليل إلى ما يسمى بالكشف الانثروبولوجي ، فلا نبالغ إذا قلنا أن التراث الإسلامي الجغرافي الذي أفرز خريطة العالم بكل معالمها و وضع القوانين و الأسس الجغرافية كان وراءها الرحالة المسلمين الذين قدموا معلومات في غاية الأهمية عن المجتمعات والشعوب والثقافات الإنسانية[18] مما يشكل مادة خصبة ومفيدة لدارسي الأنثروبولوجيا.

إنه يمكن فهم الكثير عن المجتمعات العربية والإسلامية وحل الكثير من مشكلاتها ، وذلك تشجيع الدراسات الأنثروبولوجية في هذا المجال ، حيث أن المجتمعات الإسلامية و العربية في العصور الوسطى ازدهرت في ظل الدراسات التي قام بها الرحالة والعلماء المسلمون الذين أوضحوا أنماط الحياة والقيم والعادات التي كانت سائدة في المجتمعات التي

زاروها ، مما مكنهم أن يضعوا الأساس الأول للفكر الانثروبولوجي الإسلامي [19] علما أن فهم المجتمعات الإسلامية الحالية لا تكون إلا عن طريق الأنثروبولوجيا الإسلامية الأصلية البعيدة عن النظريات والمفاهيم الغربية التي تولت دراسة مجتمعاتنا ، فنحن لا نريد أن يفهمنا غيرنا ، وعلى المدارس الجاهزة لقراءة وفهم مجتمعاتنا ، فالنخبة المثقفة من الأنثروبولوجيين في العالمين العربي والإسلامي مطالبة اليوم من أي وقت مضى بدراسة وفهم هذه المجتمعات حتى نتمكن من وضع أسس علمية لعلم الأنثروبولوجيا. [20]

وخلاصة القول فإن الأنثروبولوجيا علم عربي إسلامي أصيل ، أسسه الرحالة العلماء المسلمون الأوائل الذين جابوا الأقطار المختلفة ، وهنا تظهر أهمية كتب هؤلاء الرحالة في فهم طبيعة المجتمعات الإسلامية التي زاروها ، وبإمكاننا اليوم أن نفهم واقع المجتمعات الإسلامية الحالية عن طريق تشجيع الدراسات الأنثروبولوجية في هذا المجال.

الهوامش :

1. Blanche trapicu , les voyageurs arabes au moyen âge . Gallimard 8 eme , édition 1997 . p . 45
2. محمد امزيان ، تلازم الموضوعية و المعيارية في الميثودولوجيا الإسلامية ، أعمال ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي قسنطينة ، الجزائر 1989 م ، ص 68.
3. زكي محمد إسماعيل ، التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، دار المطبوعات الجديدة ، مصر 1992 م ص 6.
4. زكي محمد إسماعيل ، الأنثروبولوجيا و الفكر الإسلامي ، مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى 1982 م ، ص 5.

5. سورة العنكبوت ، الآية 20
6. سورة النساء ، الآية 100
7. زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، 1981 م ، ص 6
8. نفسه ، ص 10
9. أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية (ب ت) ، ص ص 137 ، 138
10. نفسه ، ص 140
11. نوفل محمد نوري ، الروايات التاريخية في كتابات الرحالة المسلمين ، مجلة الأبحاث ، منشورات جامعة الموصل ، العدد 1 المجلد 11 ص258
12. حسين توفيق إبراهيم و أماني مسعود الحديني ، ظاهرة الإحياء الإسلامي في الدراسات الغربية رؤية تحليلية نقدية ، مجلة منبر الحوار ، العدد 25 ، السنة السابعة بيروت ، 1992 م ، ص 8 وما بعدها.
13. إبن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان 1982 ، ص 135
14.
15. إبراهيم قادري بوتشيش ، اضاءات حول تراث الغرب الإسلامي (تاريخه الاقتصادي والاجتماعي) ، دار الطليعة ، بيروت ، ط 1 ، 2002 م ، ص 66
16. زكي محمد إسماعيل الأنثروبولوجيا...المرجع السابق ، ص 32،
17. نوفل محمد ، المقال السابق ، ص 252
18. Ferrand (G) , relation des voyages et textes géographiques arabes , persans et turcs relatifs a l extrême - orient du X III au XV III , paris 1913 _ 1914. P. 9

19.زكي محمد إسماعيل ، التأصيل...المرجع السابق ، ص 13

20. زكي محمد إسماعيل ، الأنثروبولوجيا...المرجع السابق ، ص22